

سورة الطور

هي مكية وعدة آياتها تسع وأربعون ، نزلت بعد السجدة .

عن أم سلمة « أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور » أخرجه البخارى وغيره .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) إن في ابتداء كل منهما وصف حال المتقين .

(٢) إن في نهاية كل منهما وعيدا للكافرين .

(٣) إن كلا منهما بدئت بقسم بآية من آياته تعالى السكونية التي تتعلق بالمعاش والمعاد ، ففي الأولى أقسم بالرياح الذاريات التي تنفع الإنسان في معاشه ، وهنا أقسم بالطور الذي أنزل فيه التوراة النافعة للناس في معادهم .

(٤) في كل منهما أمر النبي بالتذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من قول مختلف .

(٥) تضمنت كل منهما الحجاج على التوحيد والبعث ، إلى نحو ذلك من المعاني المتشابهة بين السورتين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْأَيْتِ
الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ
الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ

يَلْمَعُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ
بِهَا تُكذَّبُونَ (١٤) أَفَسِحِرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصِرُونَ (١٥) أَضَلُّوْهَا
فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنْ مَا تَجَزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

شرح المفردات

الطور بالسريانية : الجبل، والمراد به طور سينين ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه
موسى عليه السلام ، والمراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن
والتوراة والإنجيل ، والمسطور : أى المكتوب على طريق منظم ، فالسطر ترتيب
الحروف المكتوبة ، والرقق : (بالفتح والكسر) جلد رقيق يكتب فيه ، والمنشور:
المتفوح الذى لاختم عليه ، والبيت المعمور: هو الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ،
والسقف المرفوع : هو السماء ، والمسجور : أى الموقد الحمى ، من سجر النار أى أوقدها
وعنى به باطن الأرض وهو الذى دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم قديماً،
وقد أشارت إليه الأحاديث ، فعن عبد الله بن عمر : «لايركبن رجل البحر إلا غازيا
أو معتمرا أو حاجا ، فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا » .

وقد أثبت علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها
كقشرة البطيخة؛ أى إن نسبة قشرة الأرض إلى النار التى فى باطنها كنسبة قشرة
البطيخة إلى باطنها الذى يؤكل ، فنحن الآن فوق نار عظيمة : أى فوق بحر مملوء
نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة السد عليه ، ومن
حين إلى آخر تتصاعد من ذلك البحر نار تظهر فى الزلازل والبراكين كبركان ويزوف
الذى هاج بإيطاليا سنة ١٩٠٩ م وابتلع مدينة مسينا ، والزلزلة التى حدثت باليابان
سنة ١٩٢٥ م وخربت مدنا بأكلها .

وتَمُور : أى تضطرب وترتجح وهى فى مكانها ، وأصل المَور التردد فى الذهاب والجمىء ، وقد يطلق على السير مطلقا كما قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جاريتها مَورُ السحابة لارَيْثُ ولا عَجَل

وأصل الخوض : السير فى الماء ثم استعمل فى الشروع فى كل شىء وغلب فى الخوض فى الباطل ، كالأحضار فإنه عام فى كل شىء ثم غلب استعماله فى الإحضار للعذاب ، يدعون : أى يدفعون دفعا عنيفا شديدا بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار ويطحرون فيها .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بمخلوقاته العظيمة الدالة على كمال قابريته وبديع صنعته ، وعد منها أما كن ثلاثة : الطور والبيت المعمور والبحر المسجور - لأنبياء ثلاثة كانوا ينفردون للخلافة برهيم ، وإخلاص من الخلق لمناسبات الخالق ، فانتقل موسى إلى الطور وخاطب ربه وقال « أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّمِيَاءُ مِنَّا » وقال « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » وانتقل محمد إلى البيت المعمور وناجى ربه وقال « سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، وكلم يونس ربه فى البحر وقال : « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

وقرن الكتاب بالطور لأن موسى كان ينزل عليه الكتاب وهو به ، وقرن السقف المرفوع بالبيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بكل هذا على أن العذاب يوم القيامة نازل بأعدائه الذين يخوضون فى الباطل ويتخذون الدين هزوا ولعبا ، فيدفعون إلى النار دفعا عنيفا ويقال لهم : هذه هى النار التى كنتم بها تكذبون ، ادخلوها وقاسوا شدائدها ، وسواء عليكم أجزعتم أم صبرتم ما لكم منها مهرب ولا خلاص .

الإيضاح

(والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور) أقسم سبحانه بهذا الجبل العظيم الشأن الذى كلم فوّه موسى وأنزل عليه التوراة التى كتبت بنظام بديع مرتب الحروف فى رق منشور ، يسهل على كل أحد أن يطلع على ما فيها من حكم وأحكام ، وآداب وأخلاق .

(والبيت المعمور) أى والكعبة التى يعمرها عشرات الآلاف الذين يُهزّعون إليها كل عام من أرجاء المعمورة ، وينسلون إليها من كل جند ، كما يعمرها المجاورون لها تبركا بالعبادة فيها ، وطلباً لقبولها عند ربهم .

(والسقف المرفوع) أى والعالم العلوى وما حوى من شمس وأقمار ، وكواكب ثابتة وسيارات ، وما فيه من عرشه وكرسيه وملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وما فيه من عوالم لا يحصى عدتها إلا هو ، ومن جنود لا يعلم حقيقتها إلا من ذراها كما قال « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » .

(والبحر المسجور) أى والبحر المحبوس من أن يفيض فيغرق جميع ما على الأرض ، ولا يبقى ولا يذر من حيوان ونبات ، فيفسد نظام العالم وتعمد الحكمة التى لأجلها خلق .

وقد يكون المعنى — والبحر الموقد فى باطن الأرض بمنزلة التنور المحمى وقد بينا هذا فيما سبق .

ثم ذكر ما أقسم عليه فقال :

(إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع) أى إن عذاب يوم القيامة محيط بالكافرين المكذبين بالرسول ، لا يدفعه عنهم دافع ، ولا يجردون من دونه مهرباً ، جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الشرك والآثام ، ودنسوا به أرواحهم من التكذيب بالرسول واليوم الآخر .

(يوم تمور السماء مورا) أى ليس للعذاب دافع فى ذلك اليوم الذى ترتج فيه السماء وهى فى أماكنها وتتحققون أنه لا مانع من عذاب الله ولا مهرب منه .
 (وتسير الجبال سيرا) أى وتزول الجبال من أماكنها وتسير عن مواضعها كسير السحاب ، وتطير فى الهواء ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل ثم تصير كالعهن (الصوف المندوف) ثم تطيرها الرياح فتكون هباء منثورا كما دل على ذلك ما جاء فى سورة النمل .

والحكمة فى مؤر السماء وسير الجبال - الإعلام والإنذار بأن لارجوع ولاعودة إلى الدنيا لخرايبها وعمارة الآخرة .

ثم بين من سيقع به العذاب حينئذ فقال :

(فويل يومئذ للكافرين . الذين هم فى خوض يلعبون) أى فإذا حدث ما ذكر من مور السماء وسير الجبال فهلاك يومئذ للكافرين الذين يخوضون فى الباطل ويندفعون لاهين ، لا يذكرون حسابا ، ولا يخافون عقابا .

(يوم يدعون إلى نار جهنم دَعَا) أى يوم يدفعون ويساقون إلى نار جهنم دفعا عنيفا .

فإذا دَعَوْا منها قال لهم خزنتها تقرىعا وتوبيخا :

(هذه النار التى كنتم بها تكذبون) أى هذه النار التى تشهدونها هى التى كنتم بها تكذبون فى الدنيا ، وتكذبهم بها تكذيب للرسول الذى جاء بخبرها ، وللوحى الناطق بها .

ثم تكلم بهم وأنبهم فقال :

(أفسحرو هذا أم أنتم لاتبصرون ؟) قد كان المشركون فى الدنيا ينسبون إلى محمد صلى الله عليه وسلم أنه يسحر العقول ويغشى على الأبصار ، فأنبهم على ما قالوا مستهزئا بهم وقال لهم : هل ما ترونه بأعينكم مما كنتم تنبئون به فى الدنيا من

العذاب - حق ، أو سحرتهم أيضا كما كان يفعل بكم محمد في الدنيا ، أو قد غُطِّيت
 أبصاركم فلا ترى شيئا ؟ بلى إنه لحق فلم تُسْحَرِ أعينكم ولم تُغَطَّ أبصاركم .
 والخلاصة - هل في المرئي شك أو في أبصاركم عطل ؟ لا واحد منهما بوجود ،
 فالذي ترونه حق .

(اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم) أى إذا لم يمكنكم إنكارها ،
 وتحقق أنها ليست بسحر ، ولا خلل في أبصاركم فاصلوها ، وفي قوله : فاصبروا
 أولا تصبروا بيان لعدم الخلاص ، وانتفاء لعدم المناس ؛ فإن من لا يصبر على شيء
 يحاول دفعه عنه ، إما بإبعاده عنه ، وإما بمحقه وإزالته ؛ ولا شيء من ذلك يحصل
 يوم القيامة - إلا أن عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، فإن المَعَذَّب فيها إن صبر
 انتفع بصبره إما بالجزاء في الآخرة وإما بالحمد في الدنيا فيقال ما أشجعهم وما أقوى
 قلوبهم ، وإن جزع ذم وقيل فيه يجزع كالصبيان والنسوان ، وأما في الآخرة فلا مدح
 ولا ثواب على الصبر .

تم علل استواء الصبر وعدمه بقوله :

(إنما تجزون ما كنتم تعملون) أى إنما تستوفون جزاء أعمالكم في الدنيا ، إن
 خيرا فخير وإن شرا فشر «وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا» بل يجازى كل أحد بعمله ، وإذا
 كان الجزاء واقعا حتما كان الصبر وعدمه سواء .

والخلاصة - إن الجزاء محتم الوقوع لسبق الوعيد به في الدنيا على السنة
 الرسل ، ولقضاء الله به بمقتضى عدله ، فالصبر وعدمه سيات حينئذ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَأَكْبَهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ
 وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْنُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

شرح المفردات

فأكهين : أى طيبة نفوسهم مسرورة بما هى فيه ، وقام : أى حفظهم ، والطعام
الهنئ : ما لا يلهو المرء فيه مشقة ولا يعقبه تحمة ولا سقم ، وزوجناهم : أى قرانهم ،
والخور : واحدتهن - حوراء ، والخور : اسوداد المقلة ، والعين : واحدتهن عيناء : أى
واسعة العينين .

المعنى الجملى

بعد أن أبان ما يصيب الكافرين من العذاب الأليم الذى لا دافع له ولا مهرب
منه - ذكر ما يتمتع به المؤمنون فى ذلك اليوم من صنوف اللذات فى المساكن والمآكل
والمشارب والقرش والأزواج ، على حسب سنن القرآن من ذكر الثواب بعد العقاب
ليتم أمر الترغيب بعد التهيب حتى يكون المرء بين عاملين عاملى لهبة من بطش ربه
والرغبة فى رحمة ، وكلاهما لاغنى المرء عنه ، ليكمل صلاحه ، ويرعوى عن غيه ،
ولا يقنط من رحمة ربه .

الإيضاح

(إن المتقين فى جنات ونعيم . فأكهين بما آتاهم ربهم) أى إن الذين خافوا
ربهم وأخلصوا له العبادة فى السر والعلان وأدّوا فرائضه ، وتحلوا بأداب دينه ،
واتقوا عن معاصيه ، ولم يندسوا أنفسهم بالآثام ، ولم يندسوا أرواحهم بالذنوب ،
يجازيهم ربهم جزاء وفاقا بجنات يتنعمون فيها ويجدون ما لا عين رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال فى الدنيا ،
وما حرموا منه أنفسهم من لذاتها ، وما صبروا عليه من مكارهها ، ابتغاء رضوانه ،
وهم فيها قريرو الأعين طيبو النفوس ، لا يشغلهم شغل ، ولا يجدون همًّا ولا نصبًا ،
ولا يكدر صفو عيشهم مكدر .

وقوله في جنات ونعيم لبيان أن حالهم كحال من يتمتع بالبستان، وكان الطور الذي يحرسه، وقوله: فأكهين؛ إشارة إلى أن قلوبهم لا يشغلها هم ولا نصب، بل هم في لذة وسرور، وفرح وحبور.

ثم ذكر أنهم تمتعوا بنعمة أخرى قبل هذه فقال:

(ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) أى وقد نجاهم ربهم من عذاب النار، فلم يمسهم نغاضها، ولم يحسوا بأذاها؛ فهم قد لا بسوا النعم، وجانبوا النقم، وذلك هو الفوز العظيم، والنعيم المقيم.

ثم ذكر أنه يقال لهم حينئذ:

(كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) أى كلوا مما رزقكم ربكم من الطيبات واشربوا مما لذي وطاب، هنيئاً أى لا تخافون أذى ولا عائلة كما تشهدون مثل ذلك في طعام الدنيا وشربها، كفاء ما قدمتم من صالح الأعمال، وآثرتم من تعب الدنيا لراحة الآخرة. قيل للربيع بن خيثم وقد صلى طوال الليل: أتعبت نفسك، فقال: راحتها أطلب.

ونحو الآية قوله تعالى «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ». وفي قوله (هنيئاً) إشارة إلى خلو الماء كل والمشارب مما ينقصهما، فإن الآكل قد يخاف المرض فلا يهنا له الطعام، أو يخاف النقاد فيحرص عليه، أو يتعب في تحصيله وتهينته بالطبخ والإضاج، ولا يكون شيء من هذا في الآخرة.

وفي قوله (بما كنتم تعملون) إيعاء إلى أن هذا إنجاز لما وعدهم ربهم به في الدنيا فلا من عليهم فيه، بل كان المن عليهم في الدنيا، بهدايتهم للإيمان، وتوفيقهم لصالح الأعمال كما قال «يَمْتُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْمُوا قُلْ لَا تَمْتُوا عَلَيَّ إِلَّا مَكْرُؤُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ».

ثم ذكر ما يتمتعون به من الفرش فقال:

(متكئين على سرر مصفوفة) أى يجلسون على سرر مصفوف بعضها بجوار

بعض ، جلسة المتكى الذي لا كلفة عليه ، ولا تكلف لديه ، فإن من يكون عنده من يتكلف له يجلس ولا يتكى ، ومن يكون في مهم لا يتفرغ للاتكاء ، فخاله حال اطمئنان ورفع كلفة وخلو بال .

ونحو الآية قوله « عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » .

ثم ذكر ما يتمعون به من الأزواج فقال :

(وزوجناهم بحور عين) أى وجمالنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حسنا واسعات العيون .

وهذا وصف يتمدح به العربى إذا ذكر جمال المرأة .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَحَلْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَآلِئًا فِيهَا وَلَا تَأْنيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) .

شرح المفردات

التناهم : أى أتقناهم ، رهين : أى مرهون بعمله عند الله ، والعمل الصالح يفكه ، والعمل الطالح يوبقه ، وأممدناهم : أى زدناهم ، مما يشتهون : أى من صنوف النعماء ، وضروب الآلاء ، يتنازعون : أى يتجادون تجاذب ملاعبة وسرور ،

والكأس : الإثناء بما فيه من الشراب قاله الراغب ، وقد يسمى كل منهما على انفراد كأسا ، لا لغو فيها : أى فى شربها ، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب بلغو الحديث وسقط الكلام ، ولا تأثم : أى ولا يفحشون فى القول كما هو ديدن الندامى فى الدنيا ، فإنهم كثيرو اللغو فعالون للأثام ، غلمان : أى مماليك مختصون بهم ، مكنون : أى مصون فى أصدافه لم تغله الأيدى فهو يكون أبيض صافى اللون ، والسموم النار والبر : الواسع الإحسان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما يجمع به أهل الجنة من المطاعم والمشارب والأزواج كرمًا منه وفضلا - أردف ذلك بذكر ما زاده لهم من الفضل والإكرام ، وهو أن يُلحق بهم ذريتهم المؤمنة فى المنازل والدرجات ، وإن لم تبلغ بهم أعمالهم ذلك ، لتقرَّبهم أعينهم إذا رأوهم فى منازلهم على أحسن الأحوال ، فيرفع الناقص فى عمله إلى الكامل فيه ، ولا ينقص من عمله هو ولا منزلته .

قال ابن عباس : إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه فى المنزلة ، لتقرَّبهم عينه ، وقرأ الآية ، ثم وصف حالهم إذ ذاك فى الطعام والشراب والفاكهة ، فأبان أنه ما من فاكهة أو طعام يطلبونه إلا وجدوه ؛ ثم أتبع هذا ببيان عظيم حبورهم وسرورهم ، فإنهم يتجاوزون الكؤوس ، ويتندرون بأطيب الأحاديث التى لا لغو فيها ولا يَأثم بها قائلها لو كان فى الدنيا ، وتخدمهم مماليك غاية فى الحسن والجمال ، ويتحدثون بما كان لهم من شؤون وأحوال فى الدنيا كما هو شأن ناعمى البال قريرى الأعين .

ثم ذكر أن من أحاديثهم أنهم كانوا فى دنياهم يحشون ربهم ويخافونه ، ومن ثم وقاهم عذاب النار .

الإيضاح

(والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) أى إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذريتهم فى الإيمان يلحقهم بهم بأبائهم فى المنزلة فضلا منه وكرما وإن لم يبلغوا بأعمالهم منزلتهم ، لتقر بهم أعينهم ، ويكمل بهم فرحهم وحبورهم ، لوجودهم بينهم .

روى ابن مردويه والطبرانى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال له إنهم لم يبلغوا درجاتك وعملك ، فيقول : رب قد عملت لى ولهم فيؤمر بالحقهم به » .
(وما ألتناهم من عملهم من شيء) أى وما أقتصنا مشروبات الآباء وحططنا درجاتهم ، بل رفعنا منزلة الآباء تفضلا منا وإحسانا .

ويعد أن أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل لهم ، أخبر عن مقام العدل وهو ألا يؤخذ أحد بذنب أحد فقال :
(كل امرئ بما كسب رهين) أى كل امرئ مرتين بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أباً أو ابناً ، وقد جعل العمل كأنه دين والمرء كأنه رهن به ، والرهن لا ينفك مالم يؤد الدين ، فإن كان العمل صالحا فقد أدى الدين ، لأن العمل الصالح يقبله الله ويصدق إليه ، وإن كان غير صالح فلا أداء ولا خلاص ، إذ لا يصدق إليه غير الطيب .

ونحو الآية قوله « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الَّتِي هِيَ » أى إن كل نفس رهن بعملها عند الله لا ينفك رهنها إلا أصحاب اليمين ، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطاعوه من عملهم وكسبهم .

وبعد أن ذكر وجوه النعيم فيما سلف ذكر أنه يزيد على ذلك حينما نحننا مما يشتهون من فنون النعماء فقال :

(وأمددناهم بغاكةة ولحم مما يشتهون) أى وزدناهم على ما سلف فواكه وخبوما
من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى ، وإن لم يقترحوا ولم يطلبوا .
وذكر الغاكةة واللحم دون أنواع الطعام الأخرى ، لأنها طعام المترفين
فى الدنيا .

وبعد أن ذكر طعامهم أردفه بذكر شرابهم وسرورهم لدى احتسابهم له فقال :
(يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم) أى يتجادبون الكؤوس فى الجنة هم
وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل الندامى فى بينهم لشدة سرورهم كما قال الأخطل :
نازعته طيب الرّاح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة السارى
وليس فى الشراب فى الآخرة ما فيه فى الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ،
ومن الفحش فى القول ، كما يتكلم به الشرب فيها ، وقد أخبر سبحانه فى موضع
آخر عن حسن منظرها ، وطيب مطعمها فقال « بِيضَاءُ لَدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، لَا فِيهَا
قَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » وقال : « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ » .

ثم ذكر ما لهم من خدم وحشم فى الجنة فقال :
(ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) أى يطوف عليهم بالكؤوس
مما ليك لهم ، يتصرفون فيهم بالأمر والنهى والاستخدام كأنهم اللؤلؤ الرطب
المكنون فى الأصداف فى الحسن والبهاء .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّحَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : « بلغنى أنه قيل يارسول الله هذا
الخدام مثل اللؤلؤ فكيف بالخدوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : والذى نفسى بيده إن
فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

وروى « إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجىء ألف يبابه
لبيك لبيك » .

ثم بين أنهم في الجنة يتذاكر بعضهم مع بعض في أحوال الدنيا فقال :
 (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أى أقبلوا يسأل بعضهم بعضاً في الجنة
 عن حاله وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة ، ثم يحمدون الله الذى أذهب
 عنهم الحزن والخوف والههم وما كانوا فيه من الكدر والتكد لطلب المعاش وتحصيل
 الأرزاق ، وما وصلوا إليه ، تليذا بالنعمة واعترافاً بها .

أخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل
 أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجىء سرير هذا حتى يجاذى سرير هذا
 فيتحدثان ، فيتكى ذا ويتكى ذا فيتحدثان بما كانوا في الدنيا فيقول أحدهما لصاحبه
 يا فلان أتدرى أى يوم غفر الله لنا ؟ اليوم الذى كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله
 فغفر لنا » .

ثم فصل ما يجيب به بعضهم بعضاً فقال :

(قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووفانا عذاب السموم) أى قالوا
 إنا كنا فى دار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ،
 فتمفضل علينا وأجارنا مما نخاف .

والمقصود إثبات خوفهم فى سائر الأوقات والأحوال بطريق الأولى ، فإن
 وجودهم بين أهلهم مظنة الأمن ، فإذا خافوا فى تلك الحال فلأن يخافوا
 فى غيرها بالأولى .

روى أن عائشة قالت : « لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر
 الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها » .

ثم تمموا العلة فى استحقاقهم للكرامة فى تلك الدار بقولهم :

(إنا كنا من قبل نعدو إنه هو البر الرحيم) أى إنا كنا نعبده ونسأله أن
 يمن علينا بالمغفرة والرحمة ، فاستجاب دعاءنا وأعطانا سؤلنا ، لأنه هو الحسن الواسع
 الرحمة والفضل .

وكل من المؤمن والكافر لا ينسى ما كان له في الدنيا ، وتزداد لذة المؤمن إذا رأى نفسه قد انتقلت من سجن الدنيا إلى نعيم الجنة ، ومن الضيق إلى السعة ؛ وتزداد آلام الكافر إذا رأى نفسه انتقل من الترف إلى التلف ، ومن النعيم إلى الجحيم .

فَذَكَرَهُ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ (٣٢) أَمْ
يَقُولُونَ تَقْوَاهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا
صَادِقِينَ (٣٤) .

شرح المفردات

فذكر : أى فأنبت على ما أنت عليه من التكبر ، والكاهن : من يخبر بالأخبار
الماضية الخفية بضرب من الظن ، والعراف : من يخبر بالأخبار المستقبلية كذلك قاله
الراغب ، وتربص : أى تنتظر ، والمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه وصروفه
قال أبو ذؤيب :

أَمِنَ الْمَنُونَ وَرَيْبَهَا تَوَجَّعٌ وَالدهرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مِّنْ يَّجْرَعِ
وقال آخر :

تَرَبَّصْ بِهَارِيْبِ الْمَنُونِ لَعَلَّهَا تُطَلَّقُ يَوْمًا أَوْ يَمُوتُ حَلِيلُهَا

الأحلام : العقول ، والطغيان : تجاوز الحد في المكابرة والعناد ، تقوله : أى
اختلقه من تلقاء نفسه ، إذ التقول لا يستعمل غالبا إلا في الكذب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن العذاب واقع بالكافرين لاحتماله ، وأن الفريقين المصدقين
والمكذبين مجزيون بأعمالهم ، وأن الرسول على الحق المبين الذى من كذبه باء
بغضب من الله ، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه — أمر رسوله هنا
بالثبات على التذكر والموعظة ، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون ، فإنه
هو الغالب حجة وسيقا في هذه الدار ، ومنزلة ورفعة في دار القرار ؛ ثم ذكر تناقض
أقوالهم لينبئه إلى فساد آرائهم ، وإلى أنهم ما عرضوا عن الحق إلا اتباعا للهوى ،
لا اتباعا للدليل والبرهان ، وفي ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى ،
إذ ما أبعد حال من كان أرجحهم عقلا وأبينهم قولا منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشد
من الجنون والسكرانة ، إلى ما في هذا من التناقض والاضطراب ، فإن الكهان
كانوا من السكالة وكان قولهم مقبولا ، فأين هذا من الجنون ، ثم ترقوا في نسبه إلى
الكذب فقالوا إنه شاعر وأعذب الشعر أ كذبه ، ثم قالوا فلنصبر عليه ولنتربص به
صروف الدهر وأحداثه ، فسيكون حاله حال زهير والناجعة وأضرابهم ممن انقضوا
وصاروا كأمس الدابر ، ثم أمره بتهديدهم بمثل صنيعهم بقوله : « قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي
مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » ثم زاد في تسفيه أحلامهم بأن مصدر هذا التكذيب
إما كتاب أنزل عليهم بذلك وإما أن عقولهم تأمرهم بما يقولون ، لا بل الحق أنهم
قوم طاعون يفترون ويقولون ما لا دليل عليه لا من كتاب ولا مقتضى له من عقل ،
ثم زادوا في الإنكار ونسبوه إلى القول والافتراء ، فإن صح ما يقولون فليأتوا بمثل
أقصر سورة من مثل هذا المقترى إن كانوا صادقين ، لا بل هم قوم جاحدون لا يؤمنون
فليقولوا ما نسو له لهم أنفسهم فإن الله قد أعمى بصائرهم ، فهم لا أحلام لهم تميز الحق
من الباطل ، والغث من السمين فامض لشأنك ، ولا تأبه لمقالم فالله معك ، وإن
يترك شيئا من أعمالك .

الإيضاح

(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) أى فذكر أيها الرسول من أرسلت إليهم من قومك وغيرهم ، وعظهم بالآيات والذكر الحكيم ، ولا تكثرت بما يقولون مما لاخير فيه من الأباطيل ، وقد انتفت عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك ، وهذا كما يقول القائل : ما أنا بمعسر بحمد الله وغناه ، والمراد بذلك الرد على القائلين بذلك وإبطاله ، فإن ما أوتيته من رجاحة العقل وعلو المسة وكرم الفعل وصدق النبوة لكاف جد السكمانية فى دحض هذا وأشباهه . ومن قال إنه كاهن شيبه بن ربيعة ، ومن قال إنه مجنون عقبة بن أبى معيط .

ثم ذكر أنهم ترقوا فى الإنكار عليه فقال :

(أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أى بل هم يقولون : هو شاعر نتربص به أحداث الدهر ونكباته من موت أو حادثة متافهة .

روى أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة وذهبت مذاهب شتى فى صد دعوته صلى الله عليه وسلم ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم ، وماذا يقولون فى الخلاص منه ، فقال قائل من بنى عبد الدار : تربصوا به ريب المنون فإنه شاعر وسيهلك كما هلك زهير والنابعة والأعشى ، ثم افترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية .

وخلاصة هذا — إنا نبتعد من إيذائه ، ونثقى لسانه مخافة أن يقلبنا بقوة شعره وإنا سبيلنا معه أن نصبر عليه ونتربص بموته كما مات الشعراء من قبله .

فأمره الله أن يهددهم ويتهمهم بقوله :

(قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) أى انتظروا وتمهلوا فى ريب المنون ، فإنى متربص معكم منتظر قضاء الله فى فيكم ، وستعلمون لمن يكون حسن العاقبة وانظروا فى الدنيا والآخرة .

(أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل تأمرهم أحلامهم بهذا التناقض فى القول ،

فالشاعر غير الكاهن وغير الجنون ، وفرق عظيم بين من زال عقله ، ومن يقول الشعر الحكيم الرصين ، ومن يجعل قوله حجة في معرفة أخبار الغيب ، ويعتقد أن الجن توحى إليه بما يقول :

وقصارى هذا : إنهم لا أحلام لهم ولا عقول .

ثم ذكر السبب الحق في كل ما يعملون فقال :

(أم هم قوم طاغون) أى بل الحق : إن الذى حملهم على أن يقولوا ما قالوا ، هو

طغيانهم وعنادهم وضلالهم عن الحق .

(أم يقولون تقوله) أى أيقولون كاهن أم يقولون شاعر أم يقولون إنه افترى

القرآن واختلقه من تلقاء نفسه ؟ .

(بل لا يؤمنون) أى إن كفرهم هو الذى حملهم على هذه المطاعن وزين لهم

أن يقولوا ما قالوا .

ثم رد عليهم جميع ما زعموا وتحداهم في دحض ما قالوا فقال :

(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أى إن كان شاعرا فليدركم الشعراء

الفصحاء ، أو كاهنا فليدركم الكهان الأذكياء ، وإن كان قد تقوله فليدركم الخطباء

الذين يجربون الخطب ويحيدون القول في كل فنون الكلام ، فهلم فليأتوا بمثل هذا

القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، فإن أسباب القول متوافرة لديهم كما هي

متوافرة لديه ، بل فيهم من طالت مزاولته للخطب والأشعار وكثرة الممارسة لأساليب

النظم والنثر وحفظ أيام العرب ووقائعها أكثر من محمد صلى الله عليه وسلم .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَصْطَرِفُونَ (٣٧)

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعَهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨)

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

شرح المفردات

من غير شىء: أى من غير خالق ، خزائن ربك : أى خزائن رزقه، المسيطرون: أى القاهرون المساطون عليها ، من قولهم: سيطر على كذا : إذا راقبه وأقام عليه ، سلم : أى مرتقى إلى السماء ، بسطان مبین: أى بحجة واضحة تصدق استماعه ، مغرم : أى التزام غرامة تطلبها منهم ، مثقلون : أى محملون ثقلا ، الغيب : أى علم الغيب ، كيدا : أى شرا ، المكيدون : أى الذين يحيق بهم الشر ويعود إليهم وباله .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورد عليهم ما زعموه من أنه كاهن أو شاعر أو مجنون ، وأمره أن يمضى لطبقة ويذكر الناس ويبشرهم وينذرهم ولا يبابه لمقاتلتهم ، فالله ناصرهم عليهم - انتقل إلى الرد عليهم فى إنكارهم للخالق كما هو شأن الدهريين أو لادعائهم لله شريكا كما هو شأن كثير من العرب الذين قالوا: للملائكة بنات الله ، وقالوا : مانعبد الأوثان والأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

وبعد أن أقام عليهم الحجة فى كل ذلك ، وسد عليهم المسالك ، طلب إليه أن يتوكل عليه ، وأن يعلم أن كيدهم لا يضره شيئا ، فالله ناصرهم عليهم ، وسيظهر دينه، ويتم له الغلبة والفلاح عليهم .

الإيضاح

(أم خلتوا من غير شيء) أى كيف ينكرون الخالق الموجد؟، فهل هم وجدوا من العدم؟ وهل هم خلقوا هذا الخلق البديع الصنع من غير خالق ولا موجد؟ والعقل يشهد بأن كل ما يوجد من العدم لا بد له من موجد .

(أم هم الخالقون) أى بل أهم أوجدوا أنفسهم؟ والضرورة والعقل يكذبان ذلك ، إذ يلزم من هذا أن الشيء يكون مقدما في الوجود على نفسه ، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم في الوجود باعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا بين البطلان .

(أم خلقوا السموات والأرض) أى لو فرض أنهم خلقوا أنفسهم ، فهل هم يجرون ويقولون إنهم خلقوا هذه الأجرام العظيمة التي تتوقف عليها حياتهم ، وفيها أسباب معاشهم وهي السموات والأرض؟ — أظن أنهم لا يدعون ذلك .

(بل لا يوقنون) أى ليس واحد مما تقدم يمكن أن يدعوه ، بل حقيقة أمرهم أنهم لا يوقنون بما يقولون إذا سئلوا : من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ فقالوا الله ، إذ لو أيقنوا بذلك ما عرضوا عن عبادته .

(أم عندهم خزائن ربك) أى بل أهم يتصرفون في الملك ويبيدهم مفاتيح الخزان؟ فيعطوا النبوة لمن يشاءون ، ويصطنعوا لها من يختارون .

(أم هم المصيطرون) أى أم هم الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر العالم ويبتنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم ، والمراد أنه ليس الأمر كذلك ، بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد .

روى البخارى عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون » كاد قلبى يطير ، وكان جبير بن مطعم

قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركا ، فكان سماعه هذه الآية من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك .

(أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلفان مبین) أى أم لهم مرتقى إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب ، فهم لذلك مستمعون بما هم عليه ، فإن كانوا يدعون ذلك فليأتوا بحجة تبين أنهم على الحق ، كما أتى محمد صلى الله عليه وسلم بالبرهان الدال على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه .

وبعد أن رد على الذين أنكروا الألوهية بتاتارد على من قالوا: الملائكة بنات الله ، وسفه أحلامهم ؛ إذ اختاروا له البنات ولأنفسهم البنين فقال :

(أم له البنات واسم البنون) أى بل أربكم البنات واسم البنون ؟ « تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى » .

وفى هذا إيماء إلى أن من كان هذا رأيه لا يعد من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالم الملكوت ، وسماع كلام رب العزة والجلوت .

(أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) أى بل أنسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم على ماتدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته — أجرا تأخذ من أموالهم فهم من ثقل ما حملتهم من المغرم لا يقدرّون على إجابتك إلى ماتدعوهم إليه ؟

(أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟) أى أم عندهم علم فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا ويخبرونهم بما أرادوا — ليس الأمر كذلك ، إذ لا يعلم غيب السموات والأرض إلا الله .

قال قتادة : وهذا جواب لقولهم : نتربص به ريب المنون ، فيقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم يموت قبلهم .

(أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) أى بل يريد هؤلاء المشركون

بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول، فإن كان هذا ما يريدون فكيدهم راجع إليهم ووباله على أنفسهم، فتق بالله وامض لما أمرك به .

قال في فتح البيان : والظاهر أنه من الإخبار بالغيب ، فإن السورة مكية، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة ، ثم أهلكهم الله تعالى بيدرس عند انتهاء سنين عدتها عدة ما هنا من كلمة (أم) وهي خمس عشرة ، فإن بدرا كانت في الثانية من الهجرة وهي الخامسة عشرة من النبوة ، وأذلم في غير موطن ، ومكر سبحانه بهم ومكروا ، ومكر الله والله خير الماكرين اه .

(أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون) أى لهم إله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذاب الله ؟ تنزه ربنا عن الشريك وعما يعبدونه سواه .
وفي هذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم للأصنام والأنداد مع الله تعالى .

وَأِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤)
فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ
النُّجُومِ (٤٩) .

شرح المفردات

كسفا : أى قطعة ، مركوم : أى متراكم ملقى بعضه على بعض ، يصعقون : أى يُقتلون ، دون ذلك : أى قبله ، وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ،

بأعيننا : أى فى حفظنا وحراستنا ، وإدبار النجوم : أى وقت إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مزاعمهم فى النبوة وبين فسادها بما لم يبق بعده وجه للعناد والمكابرة ، ثم أعقبه بالرد عليهم فى جحودهم للألوهية إما بإنكارها بتاتا ، وإما بادعاء الشريك لله ، أو باتخاذ الولد ، سبحانه وتعالى عما يصفون - أردف هذا ببيان أن هؤلاء قوم بلغوا حدا فى العناد أصبحوا به يكابرون فى المحسات فضلا عن المعقولات ، فدعهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى لامرده ، يوم لا تنفعهم حباثتهم وشراكم التى كانوا ينصبون مثلها فى الدنيا ، ولا يجدون لهم إذ ذاك وليا ولا نصيرا ، وأن الله سيصيبيهم بعذاب من عنده فى الدنيا قبل ذلك اليوم ، وأنه ناصرك عليهم وكالثك بعين رعايته ، واذكر ربك حين تقوم من منامك ومن مجلسك ، وحين تغيب النجوم ويصبح الصباح وتفرّد الأطيار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض ، قائلة : سُبُوحٌ قُدُّوسٌ ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ .

الإيضاح

(وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مرقوم) أى إن هؤلاء قوم دبتهم العناد والمكابرة ، فلورأوا بعض ماسألوا من الآيات ، فعابنوا كسفا من السماء ساقطا - لكذبوا وقالوا : سحاب بعضه فوق بعض ، لأن الله قد ختم على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فأصبحوا ينكرون ما تبصره الأعين ، وتسمعه الأذان .
ونحو الآية قوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم فقال :
 (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) أى فدعهم وشأنهم ولا تكثرت
 بهم حتى يأتى اليوم الذى يجازون فيه بسننات أعمالهم وهو يوم بدر ، قاله البقاعى
 وهو الظاهر فى الآية .

(يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) أى وفى هذا اليوم لا تنفعهم
 الخيل التى دبروها لمناصبته صلى الله عليه وسلم النداء ، ولا يجنون لهم نصيرا ولا عيننا
 يدفع عنهم ما يحيق بهم من العذاب .

(وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك) أى وإن لظولاء الذين ظلموا أنفسهم
 بالكفر والمعاصى عذابا بالتحط والجوع سبع سنين قبل يوم بدر لأنه كان فى السنة
 الثانية للهجرة والتمحط وقع لهم قبلها .

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) ما يصيرون إليه من عذاب الله وما أعده لهم
 فى الدنيا والآخرة ، وأنا سنتليهم بالمصاب ، لعلمهم يرجعون وينيبون إلينا .
 ونحو الآية قوله : « وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلْوَنِ الَّذِي دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) أى واصبر على أذام ولا تبال بهم ، وامض
 لأمر الله ونهيه وبلغ ما أرسلت به ، فإنك برأى منا نراك ونرى أعمالك ، ونحوطك
 ونحفظك فلا يصل إليك منهم أذى .

(وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى ونزه ربك عما لا يليق به لإنعامه عليك ،
 وابعده بالتلاوة والصلاة حين تقوم من مجلسك ، قال عطاء وسعيد وسفيان الثورى
 وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده
 أو سبحانك اللهم وبحمدك عند قيامه من كل مجلس يجلسه .

وعن أبى برة الأسلمى قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بأخر عمره إذا قام

من المجلس يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل يارسول الله : إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ، قال كفارة لما يكون في المجلس « أخرج أبو داود والنسائي والحاكم وابن مردويه وابن أبي شيبة .

وروى « أن جبريل علم النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .
 (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) أى وسبحه فى صلاة الليل ، لأن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء ، وحين إدبار الليل بظهور ضوء الصباح ، وقيل المراد من التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء ، ومن إدبار النجوم ركعتا الفجر .
 وقد روى ذلك عن عمر وعلى وأبى هريرة والحسن رضى الله عنهم أجمعين .
 ونحو الآية قوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » .

خلاصة ما حوته السورة الكريمة

من العظات والزواجر

- (١) التسمم بالعالم العلوى والسفلى على أن العذاب آتٍ لا محالة .
- (٢) وصف عذاب النار وما يلاقيه المكذبون حينئذ من الذلة والمهانة .
- (٣) وصف نعيم أهل الجنة وما يتمتعون به من اللذات فى مساكنهم ومطاعمهم ومشاربهم وأزواجهم وخدمتهم وحشمتهم .
- (٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالثبات على تبليغ الرسالة والإعراض عن سفاهتهم من نحو قولهم : هو شاعر ، هو كاهن ، هو مجنون ، هو مفتر .

- (٥) إثبات الألوهية بالبراهين التي لا تقبل جدلاً .
- (٦) النعى على المشركين في قولهم : الملائكة بنات الله .
- (٧) بيان أنهم بلغوا في عنادهم حداً ينكرون معه المحسوسات التي لا شك فيها .
- (٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم حتى يأتي اليوم الذي كانوا يوعدون .
- (٩) الإخبار بأن الظالمين في كل أمة وكل جيل يعذبون في الدنيا قبل عذابهم في الآخرة .
- (١٠) الإخبار بأن الله حارس نبيه وكائنه ، فلا يصل إليه أذى من خلقه كما قال سبحانه « وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ » .
- (١١) أمره صلى الله عليه وسلم بالذكر والتسبيح آتاء الليل وأطراف النهار ، وفي كل موطن ومحاسن يقوم فيه .